العوبة الحرية

(هذه قصة كبيرة وضعها الكاتب الانجليزي المعروف فيليس أوتيهايم ، تحوي كثيراً من طرائف مناظر أمريكي ، وكثيراً من فضائح الطبقات العليا في انجلترا . ولما كان فيها مشابهة لكثير مما عندنا ، رأينا تلخيصها هنا ، وخاصة ما يتعلق منها بحرب الانتخابات البرلمانية ، فكثيرون من الناس يظنون أن الأساليب التي يقيم المتنافسون على النيابة فيها معركة على منبر ، ولكن لها أشباهها في أرق البلاد المتمدنة !)

كانت جلسة النبيل الانجليزي السير وولولي ، هذه الليلة في أحد مطاعم لندن الكبيرة على مائدة واحدة مع السيد يوسف باركر الأميركي . وابنته الحسناء الآنسة حواء .

ولم يكن بين النبيل الانجليزي وبين الاميركي ، وابنته معرفة سابقة ، ولكن المستر باركر قدم نفسه للشاب الانجليزي على أنه رجل أفاق . وابنته فتاة أفاقة !

واستكشف النبيل الانجليزي ان يقدم رجل اميركي نفسه الى رجل لا يعرفه بهذه الصفة وفي أول مرة يلقاه فيها . فكاد يتركه ويتخلص منه ، لولا أن جمال الفتاة الغالب أبقاه ، عندما جلست معه ، فرأى فيها جاذبية غريبة .

ولكن المستر باركر كان رجلاً مشتبهاً فيه لدى رجال البوليس ، ولعلّ المستر باركر ألقى بنفسه على هذا النبيل الانجليزي — عندما تخيل فيه ملامح النبلاء ، حتى يستطيع أن يتخلص من رجال البوليس اذا داهموه ، بادعائه أنه صديق لهذا النبيل !

وكان مع الاميركيين رجل آخر ، ومعه حزمة صغيرة في جيبه . فطلب إليه باركر أن يخرجها ويضعها على المائدة ، ففعل . وما لبثت أن اختفت تلك الحزمة والمستر باركر يقول : كان في إمكاني أن أنشلها من جيبك دون أن تشعر !

وفي تلك اللحظة أقبل أحد ضباط البوليس السري الانجليزي ، واتجه إليهم ، ووضع يده على كتف المستر باركر وحياه ، وطلب إليهم في أدب أن يتبعوه الى حجرة داخلية

للتفتيش ، بحجة سرقة بعض المارة والشرطة ! .

واحتج المستر باركر على هذه الاهانة التي ستلحق بصديقه النبيل الانجليزي . واحتج النبيل الانجليزي على هذا الادعاء ، فهو لم يعرف المستر باركر من قبل حتى يسميه صديقه ! .

وذهب باركر وزميله مع الضابط . ثم عادا ليتناولا عشاءهما الذي طلبه الاميركي وهو ذاهب مع الضابط ، الى أن يعود ، فقد كان واثقاً من عودته السريعة لانه لم يسرق شيئاً ، والحزمة التي كانت مع الاقمشة الاخر اختفت ! .

ورأى النبيل الانجليزي نفسه مسوقاً إلى أن يتصل بالرجل الاميركي وابنته الجميلة . وهو لا يدري لذلك سبباً إلا دافعاً خفياً نحو الفتاة .

* * *

واتضح للنبيل الانجليزي أن هذا الاميركي يعرف الكثير جداً عن معظم الاشخاص الذين يمرون بهم ، وعن أبناء لندن نفسها . ولعله كان يعرف الكثير عن (وولزلي) ولكنه أخفى ذلك عنه .

وعجب وولزلي أن تنحدر فتاة بهذا الجمال الى تلك الاعمال الاجرامية ، فقالت له إنها وأباها يعيشان بهذه الوسيلة ! .

وتشاء المصادفات أن يرى الاميركي بعض أعمال النشل أمام النبيل الانجليزي ، فيجد النبيل في ذلك تسلية بالرغم منه ، ويجد نفسه مسوقاً معهما ، ولكنه في نفس الوقت كان لا يفتأ يحاول إصلاح الفتاة ، وتهذيب الرجل ! .

واختلط الاميركي وابنته بكل أوساط المجرمين واللصوص في لندن الكبيرة ، وفي أندية القمار ، وانغمر النبيل الانجليزي معهما ، ولم يفلح في حملهما على الإقلاع عن تلك الحياة ، ولم تشفع لهما مساعدتهما على السرقات ، وعلى الخروج من بعض الورطات التي وقعا فيها ! .

واتفق الاميركي مع لص انجليزي خطر على الذهاب الى دار (الاوبرا) ذات ليلة ، فلما سأل النبيل حواء لماذا تفضل الاوبرا على غيرها قالت له وقال والدها : لان (الشغل) هناك أربح وأضمن .

ولما ذهبوا إلى هناك كانت شقيقة النبيل مع زوجها ، وهو لورد ، وكانت جالسة

الأميركي وابنته ، والشخص الآخر بمقربة منهما . وكان في صحبة الأمريكي زوجة أحد أصحاب الملايين ، وهي تتحلى بعقد ثمنه عشرون ألف جنيه .

ومال اللصان وتهامسا ، وعرف النبيل أنهما يتآمران على سرقته ، وكان ذا .

ولم تتبين النبيلة سرقة عقدها إلا عند الانصراف ، فأغلقوا الأبواب ، ولم يدعوا إلا النبلاء يخرجون . وبحث صديقهم فلم يقع لهم على أثر ، فأسرع الى المطعم الذي اعتادوا اللقاء فيه ، فوجدهم هناك ، ووجد العقد الثمين بين يدى المستر باركر الأميركي يتفرج عليه هو وابنته !

ولم يكد الانجليزي يراهم ويرى العقد مع صديقه اللص ، حتى طلب إليه أن يخفيه ولكن الأميركي لم يفطنه ، وظل يتأمله حتى دهمهم ضابط البوليس السري الذي يتتبع خطوات الأميركي وابنته وقد رآهما منذ قليل في الأوبرا ، فأخذ يراقبهما ، ولكن الأميركي اختفى عن ناظره كالمسحور . فلما اكتشفت السرقة عرف أن الأميركي هو السارق ، فأسرع خلفهم ، ودهمهم والعقد بين أيديهم ، فساقهم الى مركز البوليس ، ولشد ما أدهش النبيل الانجليزي أن جاء الخبير في الجواهر فقرر أن العقد زائف ، فأطلقهم البوليس واعتذر رئيسه !

وفي صباح اليوم التالي وجد النبيل الانجليزي العقد الحقيقي في جيبه ، فأرسله الى صاحبته ، من لص تائب !

* * *

وتكررت أمثال هذه الحوادث كثيراً ، ولكن الحادثة التي ساعدهم فيها النبيل الانجليزي مساعدة حقة ، هي عندما كانوا في المطعم الكبير ، وقد اصطحب الأمريكي لصاً انجليزياً آخر كبيراً ، وقرر معه لشل رجل أخرج حافظة نقوده من جيبه وأخذ يتأملها ، ولعله كان من رجال البوليس . وقد نصبوا هذا الفخ ليوقعوا الأميركي الذي دوخهم بسرقاته وعبقريته في السرقة ! .

ولشلت الحافظة بمهارة عجيبة ، وأقبل ضابط البوليس السري يجري وأمسك بتلابيب الأميركي وزميله اللص الآخر .

وسافرا إلى مركز البوليس ، ولكن النبيل ترك الفتاة التي تحبها — بنت الأميركي — جالسة في المطعم وأسرع لعله يستطيع انقاذ والدها ، وأخذ معه رجال البوليس ، ولكن الأميركي الماهر تمكن من اعطاء الحافظة للنبيل الانجليزي الذي كان أسرع من الأميركي في نشلها منه بمهارة عجيبة ، ووضعها في جيب صاحبها الأول !

وتركهم ضابط البوليس وهو يعض شفتيه ، وقد أدرك أن النبيل الانجليزي هو الذي فعل ذلك ، لأن الأميركي وزميله الآخر كانا محوطين برجال البوليس السري وهز الضابط رأسه ، ولعله كان يفكر في تدبير آخر !

وعادوا ثانية الى حراء قبل منتصف الطريق !

* * *

ولصح الضابط السري للنبيل الانجليزي أن يبتعد عن ذلك الأمر وابنته لأنهما مشبوهان وها ان أفلتا من قبضة القانون اليوم فلن يفلتا منه إلى الأبد ، فسيقعان في يده يوماً ما . . .

وليس من الكرامة أن يكون أحد النبلاء محلاً للشبهات ؟

والقانون لا يرحم . . .

فإذا ضبط النبيل معهما أثناء تلبسهما بارتكاب حادث سرقة ، اتهم بما يتهمان به ، ولكن النبيل لم يرتدع وكان كل غرضه أن يتزوج من الفتاة وينتشلها من تلك الحياة ، فيعرض عليها الزواج فتصده عنها أولاً في رفق ولين ، ثم تعود فتغلظ له ثم تلين ، ولكنه لا ييأس . . .

وعرض عليها ماله لتنفق منه هي وأبوها مرة وأخرى ، ولكنها قاطعته محتدة وطلبت إليه أن يكف عن هذا . . .

ولما صحبها إلى أحد أندية القمار القذرة ، ورأى أساليب المقامرين في السرقة ، ورأى كيف نشل أبوها الفين من الجنيهات كانت على مائدة القمار ، ورأى تألم الفتاة لهذه الحياة ، جاف لها ذلك ، فصمم على أن يصلحها بأية حال . . . ولكنها كانت تقول أنها ليست من طبقته ، فيبدو عليه أنه ابن أحد النبلاء ، وأما هي فابنة رجل أفاق !

ويدعوها الشاب إلى حفلة عشاء في أحد المطاعم الفخمة ليقدمها فيها إلى أقاربه

فيرفضان أولاً ، ولكن النبيل الشاب يلح عليهما فيقبلان ولكن على شرط أن يغير الأميركي وابنته اسمهما ، وان يحضرا الحفلة باسم آخر هو — مستر بندركوم وابنته !

ويقدمهما النبيل لاخته وأقاربه فيرحبون بهما ويحيونهما .

وتأخذ همة الشاب تتحدث إلى هذا الأميركي — بندركوم — وتخبره أن ابنها عند ما عاد اليهم من أميركا أخذ يتمدح لها أحد الأغنياء الكبار بهذا الاسم — بندركوم — ويتمدح ابنته ، فقد أكرماه وقضى معهما وقتاً طيباً .

وتخبر قريبها الشاب أنها أرسلت في طلب ابنها ليسلم عليهما لأنه يشتاق الى رؤيتهما واكرامهما كما أكرماه . . .

ويذهب النبيل ليخبر الأميركي بالورطة التي وقع فيها باتحال هذا الاسم . فيهرب الأميركي وابنته ، ويترك ورقة للضيف يعتذر عن الانصراف المفاجىء . ثم يكتشف النبيل حينئذ ان قلادة أخته سرقت ، وحلية عمته اختفت ، وخاتماً ثميناً جداً لاحد أقاربه فقد ، فيفكر الشاب ويسرع اليهما فيجد المسروقات فيعود بها حالاً ويقول ان أحد الخدم في المطعم لفلها ، وقد طرد في الحال !

* * *

ويتقابل الشاب والفتاة فتعتذر عن سرقة أبيها حتى لاقاربه ويعرض عليها الزواج أيضاً هذه المرة فتثور فيه ، لأن أقاربه عرفوا حقيقتها هي وأبيها ، ولكن الشاب يخبرها أنه لفق السرقة لاحد الخدم !

وهنا تشكره الفتاة ، وتبدأ تحبه حبًّا خالصاً !

* * *

ويذهب الشاب الى حفلة أخرى فيأخذها معه .

ويمثل الرجل عقداً آخر من زوجة الداعي . ولم يكن يزعج المدعوين من يثير الريبة غير المستر باركر الأميركي — أو المستر بندركوم — كما أطلق على نفسه أخيراً . . !

ولكن الشاب يدافع عنهما دفاعاً حاراً . . .

ويذهب اليهما حيث يقيمان ، فيجدهما يتصارعان ، ولما انتهت جولته معهما عاد الى بيته ،

وذهب في صباح اليوم التالي انيهما فلم يجدهما في مقرهما الأول .

لقد رحلا !

وسأل عنهما الخادم فلم يظفر بعنوانهما الجديد ، لأنهما لم يتركاه .

وليسقط في يد الشاب ، ويخرج آسفاً مغموماً ، ولكن الخادم يسرع خلفه ويناوله برقية لاسلكية آتية من أميركا تحمل لغزاً ، فقد كانت تقول — إن ه . . أبحر إلى انكلترا —

وقال الخادم انهما عند ما قرآ هذه البرقية ارتميا وأخذا في حزم متاعهما !

وعرف الشاب انهما يخشيان شخصاً يطاردهما من أميركا .

وبعد قليل يدق التليفون في بيت النبيل الانجليزي ، واذا بالمتكلمة هي حواء ، حبيبته وقد طلبته اليها ، وأنبأته انهما نزلا فندقاً من فنادق الدرجة الأولى . فلما ذهب اليها وسألها السبب قالت انهما أصبحا مشبوهين هنالك ، في الفندق القديم ، وليس هناك أحسن من الفنادق الكبيرة لذوي الشبهات ! .

وجلس الثلاثة يتحدثون قليلاً .

وأقبل ابن عمة وولزلي ، الشاب الذي كان في أميركا وعرف رجلاً وابنته يحملان إسم بندركوم ، وما كاد يرى حواء حتى أسرع نحوها وتناول يدها الجميلة بين يديه وهو يصيح — لقد رأيتك أخيراً ...

* * *

وكاد (وولزلي) أن يصعق عند ما رأى هذا المنظر العجيب ! .

وكادت الغيرة تقتله !

إذن هذا اللص الخطر ، وابنته الحسناء ، اللذان يتسميان في انجلترا باسم باركر ، ليس إلا بندركوم ، المليونير الأميركي وإبنته ، صاحب المصانع العظيمة التي تنتج الآلات الزراعية الشهيرة التي تحمل اسمه !

ويالها من حقيقة مفزعة

ويالها من أسرار محيرة عجيبة !

***

وما كاد وولزلي ينصكر في هذا كله ، وهو أشبه بالنائه الخمور ، حتى تقف سيدة أميركية في باب الحجرة الكبيرة ، توجه الخطاب الى الموجودين في داخلها ...

كانت هذه السيدة ترتدي ملابس بسيطة محتشمة ، هي الى ملابس الثراء الفاحش أقرب ، وتضع على عينيها نظارتين ، وتكلمت بصوت مرتفع :

« وأخيراً أعثر عليك ، يا سيد يوسف بندركوم ، أنت وابنتك الجميلة حواء ، وأتحمل في سبيل اللحاق بكما كل مشاق السفر الطويل والتعب الذي أورثتنيه بشذوذك الغريب ! هل تعرف كيف أتيت من أميركا الى هنا ، سعياً وراءك ، وقد تركت مصالحي هناك ، واعتذرت عن حضور المؤتمر النسائي الكبير ، لألحق بك ، وأنت تهرب من بلد الى بلد ، حتى عثرت عليك أخيراً ...

« يا سيد بندركوم أيها الرجل الذي يمتلك ثمانية ملايين من الدولارات ، ويتركها وراءه . ويصحب ابنته الوحيدة حبًّا في المغامرات ، وسعياً وراءها ، ولم يكفه الفضائح التي تركها وراءه في أميركا .. اني تعبت ، تعبت !

« من هذا السيد ؟ هل أستطيع أن اتكلم في حضرته أكثر من ذلك ؟ انني أعرف السيد الآخر الذي كان معنا في أميركا »

وهنا يخبرنا وولزلي انه خطيب حواء ، فتثور العجوز وتقول — هذا خطيب حواء ! من يدري من يكون ؟ لعله أحد اللصوص الذين تعرّف اليهم السيد بندركوم في مقهى من مقاهي اللصوص . . . لعله مجرم وضيع من هؤلاء الذين يسعى السيد بندركوم وراءهم دائماً . . . لماذا لا تتزوج السيد الآخر ، هذا الشاب الصغير النبيل ، الذي يحمل والده لقب إيرل ، إذا كان لا بد أن تتزوجي أحد الانجليز ؟ .

وهنا يقاطعها النبيل الصغير قائلاً — إن السيد وولزلي من أسرتنا ، إنه ابن خالي !

وتصمت العجوز الثرثارة !

ويأتي بعد ذلك ضابط البوليس السري الذي اعتاد أن يطارد السيد باركر — أي بندركوم — فتقول زوجته إن هذا السيد الضابط ، هو الذي أخبرها عن زوجها عندما اعطته أوصافه وذكرت له هويته !

وتعود العجوز إلى الثرثرة ، وإلى ذكر النعب الذي صادفته في سبيل سفرها ، فتقول للفتاة حواء :

— ولماذا جئت ؟ إننا لم نطلب إليك المجيء !

— ولكني يا إبنتي أسعى وراء صالحك ...

— لست إبنتك ، بل إبنة زوجك !

— نعم يا إبنة زوجي ، ولكنك في منزلة إبنتي !

وتعود الى الثرثرة واللغط ، ويهرب الأميركي من زوجته ويجلس للشراب مع الضابط ، ومع النبيل الانجليزي ، الذي أحبه حبًّا جمًّا !

* * *

واختلى وولمزلي وحواء .

وسألها عن السبب في سلوك والدها ، وسلوكها معه . هذه الحياة العجيبة ، فقالت :

— لقد أغرم والدي بحب المخاطرات . ودراسة الحياة الرديئة ، التي يحياها اللصوص والنشالون ، وقد قرأ كل الروايات البوليسية ، ومثلها ، وبزها في الكثير ، وكل أمله من ذلك لم يعدُ الدراسة ، فالاصلاح ، فالتهذيب !

— ماذا تقصدين الاصلاح والتهذيب ؟

— أقصد ما أقول ! ان والدي يتعمر بين اللصوص والمجرمين والنشالين ، ويتظاهر بأنه أحدهم ، وهو يتقن النقل والسرقة اتقانًا عجيبًا ، ولكنه إذا وجد من أحد اللصوص ميلاً الى الحياة الشريفة ، ساعده عليها !

— هذا عجيب ومحيّر !

— هو الواقع ، فكم أصلح والدي من أمور الكثيرين ، وساعدهم على الحياة الشريفة من جديد ، وسترى بعض ذلك !

— وماذا صنع بعقد زوجة المضيف الذي دعاني فتعرفتكما معي اليه ؟

— رددناه اليها من (لص شريف) !

— وماذا صنع بالآلهين من الجنيهات التي نقلها من منتدى القمار ؟

— لم ير أن يردها الى صاحبها ، لأنه مال مسروق كذلك ، ولكنه ضم اليها المئة الثالثة وأرسلها الى أحد المستشفيات لمساعدة على علاج الفقراء !

وجلس النبيل مع خطيبته حواء ، وزوجة أبيها ، يتناولون العشاء في المطعم القديم .

وتطلعت حواء فرأت والدها جالساً مع فتاة جميلة على مائدة قريبة .

ورآها وولزلي ، وحاول هو وخطيبته أن يصرفا زوجة السيد بندركوم عن هذا المكان كيلا ترى زوجها ومعه تلك الحسناء ، ولكنها رأتهما !

وطلبت من السيد وولزلي أن يذهب إليه ويدعوه ، فاعتذر ، ولكنها هددته بالذهاب بنفسها وعمل فضيحة في هذا المطعم المحترم ، فقام الشاب متألماً . واتجه الى صهره ، فابتسم ، وحياه ، وانحنى الفتاة بصحبته ، وأشار إليه أن زوجته جالسة معه هي وحواء ، ولكن السيد بندركوم تجاهل وقال له :

— أنت مخطىء أيها السيد ! ليس إسمي بندركوم ! إن إسمي يوسف . ه . باركر !

ولكن ... !

فالتفت الأميركي الى الفتاة الجالسة معه وسألها :

— هل تعرفين هذا السيد ، يا آنسة بلانش ؟

— كلاَّ . . .

— أنت مخطىء إذن أيها السيد ! لست أنا المقصود !

وعاد الشاب فأخبر العجوز ، فثارت وذهبت بنفسها ، ولكن زوجها تجاهلها كما فعل مع صهره ونادى خادم المطعم ليطردها !

* * *

وخرج الشاب وخطيبته ، وجلست العجوز تنتظر زوجها على باب المطعم ، ولكنه خرج من الباب الآخر مع حبيبته الصغيرة !

(الخاتمة)

مصطفى المهدى غنام